﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾ [الحجر: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّسجيلُ على إبليس بالاعتراف بذنبه

لمّا أخبر اللّه تعالى عن امتناع إبليس عن السُّجودِ لآدم بعدَ الأمرِ الإلهي؛ أتبعه بسؤال اللّه له، وهو العالم بحالِه عن السَّبب الذي منعه من السُّجود.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خطابُ اللّه تعالى لإبليس ليس للتَّشريفِ، بل لإقامةِ الحجَّة والتَّقريع

سأل اللّه تعالى إبليس - وهو أعلم به - ليظهر حقيقته، ولتقوم الحجَّة على استحقاقه للعقاب، فقال اللّه تعالى له: يا إبليسُ، ما السَّبَبُ الذي حمَلَك على ألّا تكونَ مع الملائكةِ السّاجِدينَ لآدَمَ، وقد أمرتُك بالسُّجودِ معهم؟[1] وقد جرى الاستخبار في الآية على ما تعرفُه العَرَبُ مِن كلامِها، وتستعمِلُه في مُحاوراتِها، فتسألُ عن الشَّيءِ تَعرِفُه، لينطق به المسؤولُ، أو لِيُقِرَّ به، أو لِتؤكِّدَ الحُجَّةَ عليه، ومِثلُ هذا كثيرٌ في القُرآنِ، قال اللّهُ تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: 17]، وهو يَعلَمُها ويَراها[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف البياني:

مجيء الكلامِ على طريقِ الاستئنافِ لِتشويقِ السّامعِ واستدرارِ إصغائِه

ورد الكلامُ على طريق الاستئناف البياني مَسوقًا للجواب عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ امتناع إبليس من السُّجود مخالفًا الملائكة كلَّهم أجمعين، فكان ذلك ممّا يحرِّك السامع، ليسأل - لعظم مخالفة الأمر وهول الموقفِ - فكأنَّه قيل: فماذا قال اللّه تعالى حينَ أعرضَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/66، والسمعاني، تفسير القرآن: 3/139، والشوكاني، فتح القدير: 3/157.

(2) القصاب، النكت الدالة على البيان: 2/44.

إبليسُ عن السُّجودِ، ولم يمتثل لأمر اللّه؟ تشويقًا للسّامع، واستدرارًا لإصغائه لما هو مهمٌّ في الكلامِ، فجاء الجوابُ بقولِهِ: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾.

بلاغة النِّداء في قولِه: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ﴾:

الممتنع عن الامتثال لأمر اللّه بعيدٌ عن رحمتِه

لمّا امتنع إبليس عن السُّجودِ؛ ناداه اللّه تعالى بـ(يا) التي هي لنداء البعيد للإيذانِ ببعدِه عن رحمةِ اللّه تعالى بامتناعِه عن السُّجود.

دلالةُ الضَّمير في قولِه: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ﴾:

تعظيمُ شأنِ الامتناعِ عن الامتثال والتَّرهيب منه

لمّا كان الضَّمير في ﴿قَالَ﴾ عائدًا إلى لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ [الحجر: 28] بما اتَّصفَ به؛ كان المعنى: قال ربُّك الذي أمر الملائكة بالسُّجود للبشرِ الذي خلقَه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ، ففيه إيذانٌ بأنَّ اللّه تعالى إنَّما سأل من لم يأتمر بأمرِه، ترهيبًا لشأنِ الامتناعِ عن الامتثال.

بلاغة مجيء الكلامِ خلافِ الظّاهر:

لإبليسَ نصيبٌ من معنى اسمِه

كان الظّاهر أن يقول: (قال ما منعك ألّا تسجد) - في قولِه ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ - لقربِ ذكرِ اسم إبليس اللَّعين، ونكتة مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهر، بإيثار إعادة الاسم الظّاهر؛ الإشعارُ بأنَّه ميؤوسٌ منه؛ لدلالة الاسم على اليأس من رحمةِ اللّه، فهو من الإبلاس وهو الإبعاد، وكأنَّه قيلَ: يا مُبْعَدُ[1]، كما أنَّ ذكر اسم الملعونِ تسجيلٌ عليه بامتناعِه من السُّجود، وأنَّه لا أحدَ غيره يكون حالُه مثلَ حالِه في الامتناعِ من السُّجود.

بلاغة الاستفهام المجازي في الآية:

استدراجُ إبليس ليظهر ما في باطنِه

لمّا كان اللّه تعالى عالمًا بسبب امتناعِ إبليس من السُّجود وبالغرضِ الذي دعاه إليه؛ كان الاستفهام على طريق المجاز في قولِه ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾؛ ليفيدَ الإنكارَ على عدمِ سجودِه، ويتولَّد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بلس)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361.

من هذا الإنكار التَّوبيخُ واللَّومُ على إبائِه، والتَّعجيبُ من حالِه؛ لأنَّ شأنَ المتعجَّب منه أن يُسألَ عن سببِه، بحيث يجدر أنْ يسألَ عن السَّبب والغرضِ ممّا يتعجَّبُ منه، وفيه استدراجٌ لإبليسَ ليُظهِرَ ما في باطنِه من العداوة.

فائدة طريق الاستفهام الإنكاري في الآية:

انتفاء أنْ يكون لإبليسَ أيُّ سببٍ يمنعُه من السُّجودِ لآدمَ

لمّا كان الاستفهام إنكاريًّا في قولِه: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أفادَ إنكارَ أن يثبتَ لإبليسَ أيُّ سببٍ يمنعُه من السُّجود، والمعنى: أيُّ سببٍ يحملك على الامتناعِ عن أن تكونَ مع السّاجدين؟ وأفادَ إنكارَ أن يكونَ للَّعينِ أيُّ علَّة غائيَّةٍ، أي: أيُّ غرضٍ وأيُّ داعٍ لك دعاك إلى الامتناع عن أن تكونَ مع السّاجدين[1]؟ ولمّا كان لفظ ﴿مَا﴾ يفيد العمومَ في الاستفهام؛ دلَّ على إفادةِ الاستفهام الإنكاريِّ انتفاء أنْ يكون له أيُّ سببٍ أو غرضٍ يحملُه على عدمِ السُّجودِ، أو يمنعُه منه.

دلالة اللام في قولِه: ﴿مَا لَكَ﴾:

اختصاص السُّؤال عن حالته العجيبةِ به، وهي امتناعه عن السجود آدم

هذه اللّام لِلاختصاص، بمعنى اختصاص السُّؤال بالمخاطب - وهو إبليسُ هنا - على الحالةِ العجيبةِ التي وقعت منه.

دلالة جملةِ الحالِ:

التَّعجيب من إبليسَ لامتناعِه من السُّجود

قوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في موضع الحال، وهي قيدٌ للاستفهام الإنكاريِّ، والتقدير: ما لكَ في ألّا تكون مع السّاجدين، فالإنكارُ على حالةِ امتناعِ إبليسَ من السُّجودِ، أي: فالاستفهام عن إبليس في هذه الحالة العجيبةِ.

سبب إيثار حذف حرف الجر في الآية:

حذف حرف الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/577، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75.

امتناعُ إبليسَ عن السُّجود لآدم هو بمنزلة امتناعِه عن كلِّ سجود أُمِرَ به

للإيجاز ولظهورِ المعنى، وللإشعارِ بأنَّ امتناعَ إبليسَ عن السُّجود لآدم هو بمنزلة امتناعِه عن السُّجود في كلِّ موضعٍ أُمِرَ به، ليفيدَ عمومَ المواضعِ من غير تخصيصٍ بموضعٍ دونَ آخر.

براعة النَّفي في قولِه: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾:

امتناعُ إبليسَ من السُّجود لآدمَ بمنزلة الاستمرارِ على امتناعِه من امتثال أمر الله تعالى

لمّا كان الظّاهر أن يقول: (ما لكَ أن لم تكن مع الساجدين؟) مثلًا؛ لأنَّ الإنكارَ جاء بعدَ وقوع الحادثة؛ كان مجيء التَّركيب بصيغة النَّفي بـ(لا) واقترانِه بـ(أنْ) المصدرية الدالَّة على الزمن المستقبل لسببٍ: وهو الإيذان بتطاول زمن امتناعِه من السُّجود، وكأنَّه مستمرٌّ عليه، لما تفيدُه (لا) النّافية من الدلالة على استمرارِ النَّفي، و(أنْ) المصدرية على الزمانِ المتطاول[1]، ليفيد هذا التَّركيبُ أنَّ امتناعَه من السُّجود لآدمَ كان بمنزلة امتناعِه من الائتمار لأمر اللّه تعالى، بالزَّمان المتطاول الذي ابتدأ بوقوعِ الحادثة، ليفيد امتناعَه عن السُّجودِ في عمومِ الزَّمان، كما أفادَ حذف حرفِ الجرِّ عمومَ المواضعِ، كما تقدَّم.

سبب إيثار التعبير بقولِه: ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

تأكيدُ أنَّ إبليسَ ليس من الملائكةِ

لم يقل: (ما لكَ ألّا تكونَ مع الملائكةِ)؛ لأنَّ محطَّ الإنكار هو امتناعُه من السُّجود، وتقدَّم أنَّ التَّعبير بـ﴿مَعَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّه ليس من جنس الملائكة، وأنَّه دخل في الأمر على سبيلِ التَّبع؛ كما أفاد لفظ ﴿مَعَ﴾ أنَّ الأمر بالسُّجودِ كانَ على سبيلِ المصاحبة.

نكتة حذف المتعلّق في قولِه: ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

الامتثال لِأمرِ الله بالنَّظر لِكونِه أمرًا من الله تعالى

لمّا كان تقدير الكلام: ما لكَ ألّا تكونَ مع الساجدين لآدم؟[2] أفاد أنَّ حذف الجار والمجرور للإيجاز، وللتنبيه على أنَّ مخالفته هي في الائتمار بأمر اللّه بالسُّجود، وليس لخصوص مَنْ أُمِرَ بالسُّجود له.

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/156، 4/206.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/210.

سبب اقتصار توبيخ إبليس على امتناعِ السُّجود:

تـراكـمُ المعـاصي يوجب السَّخط

لمّا جاء في سورة الأعراف توبيخُ إبليسَ على الامتناعِ من الائتمار بأمر اللّه في قولِه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: 12] وجاء في سورة (ص) توبيخه على الامتناع من السجود لِما خلقَ اللّه بيديه في قولِه: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: 75]، وجاء في هذه السورة توبيخُه على عدم سجودِه مع السّاجدين؛ أفادَ أنَّ كلَّ هذه المعاصي تقتضي توبيخَه، وأنَّ كلَّ واحدةٍ من تلك المعاصي الثلاث كافية في التوبيخ وإظهارِ بطلانِ ما ارتكبه[1].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75.